ملاحظات عابرة :

فاعل خير — هموم الناس — السخط والتشاؤم

(١)

يلاحظ القارئ لقوائم التبرعات بالصحف فى هذه الأيام ظاهرة طيبة، تلك هى ورود أرقام لتبرعات مالية يكتب أمامها " فاعل خير " أو " مجهول " وهى علامة خير لاشك فيها ودليل على ارتفاع الروح الأدبية وسمو فكرة الاحسان فى بعض النفوس والاقدام على فعل الخير مجردا عن حب الشهرة وعن الرياء .

" فاعل خير " فأل حسن فى أمة يتبرع المتبرعون فيها وهم يتلفتون حولهم ليتأكدوا من وجود مندوبى الصحف وليتفاوضوا قبل ذلك فى " التعويض المناسب " عن هذه الخسارة المحققة ! وليضمنوا الصفقة الرابحة من لقب أو منصب أو قضاء أشغال !

فاذا وجد فى هذه الأمة من يتبرع بلا دافع من هذه الدوافع المعروفة ، ومن يقاوم مع ذلك إغراء النشر والاعلان ، فتلك ظاهرة تستحق التسجيل ، وذلك مطلع فجر جديد جميل

وبهذه المناسبة نذكر أن التبرعات لإنشاء الوحدات الصحية والمساهمة فى "تحسين الصحة القروية" لا تزال بطيئة وقليلة بالقياس الى النشاط الذى بدأت خطواتها به ، والذى توقعنا بسببه رقما عاليا لهذه التبرعات .

لقد تفاءلنا خيرا حين بدأت التبرعات من ذات الألف تتوالى على وزير الصحة ، فقلنا : إن المقدر فى الأصل للمشروع حوالى مليونين ونصف المليون من الجنيهات فى كل عام ، وأن الذى اعتمد وسيعتمد فى سنى الحرب هو ستمائة ألف جنيه فى العام ، وقلنا : إننا نرجو أن تنهض التبرعات الشعبية بما عجزت عنه الميزانية الحكومية فى العام الحاضر وإن هم إلا أثمان من الأغنياء يتبرع كل منهم بألف جنيه فقط فيكمل المبلغ المراد !

لقد كان ذلك — فيما يبدو — حلما جميلا رأيناه ، لا أملا ممكنا توقعناه . ولكننا نود أن نستغرق طويلا فى هذا الحلم الجميل ، إذا كان تحقيقه فى عالم الواقع من المستحيل

ورحم الله " كارنيجى " ذلك الرجل المحسن العظيم الذى تبرع بثمانية وتسعين مليونا من الجنيهات من بين مائة مليون ، فلما استغل المليونير الباقين فصارا خمسة ملايين تبرع بها أيضا على أن تنفق بعد الوفاة .

رحم الله ذلك " المجنون " فى عرف أغنيائنا " العقلاء " الذين يعرفون كيف يبخلون على الوطن الذى منحهم الثراء ، ويعرفون كيف يتبرعون على شرط أن يحصلوا على الجزاء ، وما أفدحه من جزاء !

(٢)

"ما استحق أن يولد من عاش لنفسه فقط" ذلك هو شعار المتطوعين للإسعاف ، فما أجدره أن يكون شعارا لكل فرد فى المجتمع .

وإن العين لتقع على الكثيرين فى مصر ممن لا يستحقون أن يولدوا ، أولئك الذين يجعلون أنفسهم محورا لحياتهم ، ويجعلون رغائبهم أقصى أهدافهم .

إن الدنيا لتضطرب من حولهم ، وإن المجتمع ليموج من خلفهم ، وإن هموم الناس لتبدو لأعينهم ، ولكنهم فى شغل عن ذلك كله بنفوسهم ، وفى غفلة عن هذا كله بهمومهم

ولن تكون همومهم هذه إلا تافهة رخيصة ، تتعلق باشتهاء لذة ، أو حرمان من متاع ، أما هموم الإنسانية الراقية ، ومشاغل الحياة العالية ، فلن تعرف الطريق إلى نفوسهم الصغيرة ، ولن تنفذ إلى قلوبهم الحقيرة .

أعرف شبانا وفتيات تشغلهم وتشغلهن أحدث الموديلات فى البذلات والفساتين ، وفى الجوارب والمناديل وفى كى الشعر وتصفيفه ، ثم يشغلهم ويشغلهن التفكير فى الحفلات والسهرات ، وفى اللذائذ والشهوات . حتى إذا مر بالوطن حادث ، أو كرث المجتمع كارث ، أو تعرض جيرانهم الأقربون لأذى لم يبلغ صدى ذلك كله إلى قلوبهم ، وإن وصل إلى أسماعهم اتخذوه مادة للسخرية ، ومنبعا للفكاهة ، وسببا للنكتة .

وإن هؤلاء جميعا ليعيشون ويموتون محصورين فى هذا الأفق الضيق السخيف كما تموت الديدان والحشرات بلا ذكرى ولا تاريخ .

وأعرف شبانا وفتيات — وإن كانوا وكن أقل عددا — نفوسهم متفتحة لكل حدث عام ، يلمس حسهم ما يلمس الوطن فيتوفزون ، ويهزهم ما يهز المجتمع فيثبون ، ويهمهم ما يهم الناس فيشاركون .

وإن هؤلاء جميعا ليعيشون نابهين ، ويموتون مذكورين ، ويخلدون فى وسطهم أو فى وطنهم ، أو فى عالم التاريخ . وإنهم ليحيون حياة واسعة حافلة ، ويموتون ميتة شريفة عظيمة .

والأولون دليل انحلال وأفول ، والآخرون دليل نهضة وارتقاء ، فليكن لمصر فى شبانها وفتياتها من هؤلاء الأخيرين عدة للمستقبل ، وسلاح للكفاح فى عالم يتهيأ للظهور من وراء هذه الحرب الضروس .

(٣)

فى مراحل الانتقال — كالمرحلة التى نجتازها الآن — يكثر عدد الساخطين وعدد المتشائمين كلما كثر عدد العابثين وعدد المستهترين. والساخط دليل حياة، أما المتشائم فدليل موت .

الساخط إنسان حساس، لا يطيق الشر ، ولا يصبر عن الخير ، يستعجل خطوات الزمن ، ويستبطئ خطا الإصلاح ؛ و ينفر من الواقع الذى لا يرضيه . والمتشائم إنسان مريض الحساسية ، يائس من الخير ؛ مستعظم للشر ، لا يرجو إصلاحا ، ولا يحاول تغييرا ، ولا عقيدة له فى الحياة .

وقد تتشابه مظاهر السخط ومظاهر التشاؤم فى أول الأمر ، فكلاهما تبرم بالواقع وألم من الحاضر ، ولكنهما يفترقان بعد ذلك تمام الافتراق . فأما السخط فيدفع صاحبه إلى العمل لتغيير الواقع واستكمال النقص وتحسين الحال ، وأما التشاؤم فيدفع صاحبه إلى الانزواء عن الحياة والانحسار عن المجتمع ، وترك الحال والمآل .

ونحن — فى مرحلة الانتقال — فى حاجة إلى عدد كبير جدا من الساخطين ، ولسنا فى حاجة إلى واحد فقط من المتشائمين ، لأننا فى حاجة إلى الحركة لا إلى الجمود ، و إلى العمل لا إلى القعود ، و إلى الإصلاح العاجل لا للاستسلام للفساد .

و يجب ألا نخشى السخط على النقص والفساد ، فمن هذا السخط نستمد الحرارة للعمل ، والقوة للجهاد ؛ ولو رضى الجميع عن الواقع ما فكر أحد فى الإصلاح ، ولما سارت عجلة الحياة إلى الأمام ، ولا وجد الدواء لما نشكوه من الأدواء .

ومتى تحولت حرارة السخط إلى حركة إصلاح ، كنا فى أمن من كل ما نخشاه منه ونتوقعه إنما يخشى السخط المحتبس الذى لا يتحول إلى حركة منطلقة ؛ والأمم فى فورات نهضتها تريد السرعة وتضيق بالبطء ، وتدفع العجلة إلى الأمام بعنف . وهذا كله خير لأنه أفضل من الجمود أو الهمود .

فلنرحب بالسخط الحار ولنحارب التشاؤم البارد ، بل لنتعلم كيف نسخط على النقص لنتعلم كيف نرحب بالكمال ، ولنتألم من الحاضر لنضمن الاستمتاع بالمستقبل ، فالسخط والألم دليلان على الحياة كالاستبشار والرجاء سواء بسواء .